التصوف في الفكر الإصلاحي التجديدي للشيخ أشرف علي التهانوي (ت1326هـ/1943م)

شاه معين الدين الهاشمي*
جنيد أحمد الهاشمي**

إنّ الأعمال الكبيرة والمآثر الجليلة الّتي وفّق الله تعالى التهانوي لتحقيقها وإنجازها من التجديد وإصلاح الأمّة، وإحياء الفهم الصّحيح للدّين، ونشر العلوم النبويّة، وإعادة الحياة والنّشاط والحيويّة في فكر عهده، وبذل الجهود الجبّارة لإقامة الدولة الإسلاميّة القويّة القائمة على نظريّة الإسلام السياسيّة، والتصنيف والتأليف، والبحث، والتدريس، وتربية الخلفاء وتخريج الرّجال الأكفاء، وإيجاد جيل من المؤلّفين المهرة والدّعاة البررة، وحفظ الكيان الإسلامي وتطهيره في الهند من أدناس التقاليد الجاهليّة، ومن المعتقدات الوثنيّة الدخيلة على الإسلام الّتي كانت نتيجة إهْمَالِ النّاس تعليم الكتاب والسنّة، وشدّة احتكاكهم بالحضارة الهندوسيّة الّتي سمّيت بـ"أكّال الحضارات"، اتّسعت دائرتها وتنوّعت شعبها بحيث أصبح لا يوجد له نظير لا في معاصريه فحسب، بل في عامّة العلماء والمؤلّفين في الهند في العهود السّابقة بعد الإمام الدهلوي أيضا. ولعلّ سبب ذلك بعد توفيق الله تعالى يرجع إلى ذلك الاحتواء والشمول، وعلوّ الهمّة، ودقّة دراسته للمجتمع، والمنهج الخاص للتربية والإصلاح الّذي خصّه الله تعالى به وقدّره له.

فنظرًا إلى هذه الجهود الإصلاحيّة والتجديديّة الرائعة يعتبر التهانوي "صانع التغيير" في البلاد الهنديّة الشاسعة حتّى غلب عليه لقب "حكيم الأمّة" و"مجدّد الملّة بالدّيار الهنديّة " فهو بذلك يستحقّ دراسة تخصصيّة من الباحثين في تاريخ الإصلاح الديني والفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية.

1. إنتماء الشيخ إلى السلاسل الصوفية الأربعة:

كان للتهانوي شرف المبايعة من الحاج إمداد الله بالمراسلة خلال أيّام دراسته في ديوبند في 1299هـ/1881م. فلمّا أكمل الشيخ التهانوي دراسته سافر إلى الحجاز للحجّ فحجّ وزار، ثمّ اتّصل بشيخه وبايعه بيعة السلوك ولازمه مدّة واستفاد من صحبته.

ثمّ رجع إلى الهند وعاد إلى مدرسته "جامع العلوم" بكانبور" يدرّس للطلاّب ويفيد مع اشتغاله بالأذكار والأشغال حتّى غلبت عليه الحالة، وهاج في قلبه الحنين إلى لقاء شيخه واستولى عليه الشوق والاضطراب فترك التدريس وسافر إلى الحجاز ثانية وبقي عند شيخه مدّة ستّة أشهر، ولازمه ملازمة لا تفتر ولا تنقطع، وبقوّة استعداده وكمال عناية الشيخ أصبح في هذه المدّة اليسيرة كالمرآة تتجلّى فيها سيرة الشيخ، وتنعكس فيها أخلاقه،حتّى أصبح معروفا في دياره بعبادته وزهده وورعه، وبحسن تعليمه وتربيته.[1]

وقد أوصاه شيخه أن يرجع إلى موطنه "تهانه بهون" ويلزم زاويته (زاوية الحاج إمداد الله المعروفة بـ"دكّان المعرفة") المسمّاة بـ"الخانقاه الإمدادي" هناك.[2]

---

*أستاذ مساعد، كلية العربية والدراسات الإسلامية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد،باكستان
**أستاذ مساعد، كلية الدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد،باكستان

فعاد الشيخ إلى الهند، ورجع إلى موطنه "تهانه بهون" . وكان هذا في شهر صفر سنة 1315هـ/1897م، ثمّ لم يزل مقيما بموطنه وبهذه الزّاوية إلى أن توفّاه الله تعالى في سنة 1362هـ/1943م.[3]

وأمّا بالنّسبة إلى طرق الصوفيّة فإنّه ينتمي إلى الطريقة النقشبنديّة،[4] والطريقة الجشتية،[5] والطريقة القادريّة،[6] والطريقة السهروردية،[7] وذلك لأنّ شيخه الحاج إمداد الله المهاجر المكيّ جامع لهذه السلاسل الأربعة في الهند، وقد منحه خلعة الخلافة في جميع هذه الطرق ، وكان التهانوي يجمع بين هذه السلاسل الأربعة في منهجه التربوي الإصلاحي.[8]

والطريقة الّتي اختارها التهانوي هي عين الشريعة، لأنّ فيها تربية النّفوس وتزكيتها، وتخلية عن الرذائل، وتحلية بالفضائل المأمورة في الشريعة الغرّاء، فقد جمع الشيخ بين الطريقة والشريعة، وجعل الطريقة خادمة للشريعة، وطهّر التصوّف والسّلوك من البدع والخرافات ورسوم المتصوّفة وجدّد هذا الفنّ لأهل العصر ممّا التصق به من البدع والزوائد، فيقول التهانوي:

"كلّ ما لا يجوز في الشّرع فهو خطأ عند الصوفيّة أيضًا، فإنّ الصوفيّة لا يخرجون عن جادة الشريعة وحدودها، ومن خرج منهم من حدود الشريعة يفوته التصوّف".[9]

2. إعتراف أهل زمانه لمكانته التجديدية في مجال التصوف:

لقد نال التهانوي مكانة علميّة مرموقة بين علماء شبه القارّة الهنديّة، والدّليل على ذلك عبارات كبار العلماء والزّعماء من المعاصرين ومن بعدهم، الّتي وصفوا بها هذا العالم الجليل، وقد نال عددًا من الألقاب والأوصاف العلميّة الّتي لا تُطلق إلاّ على العلماء الكبار.

أثنى عليه المحدّث الكوثري، أبلغ الثناء في كتابه"مقالات الكوثري" في مقالته الّتي تحدّث فيها عن تناوب الأقطار في الاضطلاع بأعباء علوم السنّة، فبعد أن أشار إلى جهود علماء الهند وباكستان ومآثرهم في خدمة السنّة المطهّرة في القرون الأخيرة ونهوضهم بأعباء علوم السنّة في القرن العاشر حتّى الآن، قال: "وكذلك عني بهذا الأمر العلاّمة الأوحد، والحبر المفرد، شيخ المشائخ في البلاد الهنديّة، صاحب المؤلّفات البالغ عددها نحو خمس مائة مؤلّف ما بين صغير وكبير...العالم الربّاني، وهو بركة البلاد الهنديّة وله منزلة سامية عند علماء الهند حتّى لقّبوه "حكيم الأمّة".[10]

واعتبره كثير من العلماء والمشائخ الكبار"مجدّد الملّة الإسلاميّة بالدّيار الهنديّة" وآخرون "مجدّد المعاشرة" في القرن الرّابع عشر الهجري.[11]

كما لُقّب التهانوي أيضًا بـ"محي السنة"،[12] واعتبره السيّد سليمان الندوي "حافظ الحديث".[13]

امتدحه عبد الفتّاح أبو غدّة قائلاً:

"وهذا شيخ الهند مولانا حكيم الأمّة أشرف علي التهانوي المتوفّى من نحو أربعين سنة عام 1362 عن 81 سنة، قد زادت تآليفه على ألف مؤلَّف– ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".[14]

ويقول في كتابه "تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي: "فهذا أكبر مؤلّف – في العالم في العصر الحاضر– ... حكيم الأمّة الشيخ الفقيه العابد الزّاهد مولانا الشاه محمّد أشرف علي التهانوي".[15]

وقال عنه ظفر أحمد العثماني في كتابه "قواعد في علم الحديث" ما نصّه:

"سلطان العلم في زمانه والعمل، سَبّاق غايات، وصاحب آيات، حكيم الأمّة المحمّديّة، مجدّد الملّة الإسلاميّة، أشرف الأولياء الكاملين، مِقدام العلماء الرّاسخين، التّقي النّقي، المحدّث، المفسّر، الفقيه، الوليّ، سيّدي الشيخ، الحافظ، الثّقة، النّبت، العلاّمة، مولانا أشرف علي التهانوي، حجّة الله في زمانه على الإطلاق، الّذي أذعن لحكمته البالغة وفطنته النّابغة علماء الآفاق".[16]

ويقول سيّد سليمان الندوي عن مكانته العلميّة ومشيرا إلى خدماته المتنوّعة:

"إنّ فيوض حكيم الأمّة مولانا أشرف علي التهانوي وبركاته العلميّة والدينيّة مختلفة الأنواع...فهو مترجم (لمعاني) القرآن، وهو مجوّد، ومفسّر، وشارح لعلوم القرآن وحِكَمِهِ، ومُزيل الشبهات حوله، وهو محدّث وشارح لأسرار الحديث ونكاته، وهو فقيه فقد أجاب عن آلاف من المسائل الفقهيّة وحلّ الأسئلة الحديثة وأفتى عنها بكلّ حزم واحتياط. وقد كان خطيبًا وواعظا فقد جمع الخطب المأثورة، وقد نشرت المئات من مواعظه. وكان صوفيّا فقد كشف أسرار التصوّف وغوامضه وقد أوقف الجدل القائم منذ القدم بين الشريعة والطريقة وجمعهما في "تيّار" واحد، وكان مُرشدًا كاملاً، استفاد منه الآلاف واسترشدوه. وكان مصلحًا للأمّة فقد أصلح مئات معائب الأمّة... وقد شاعت مصنّفاته في طول الهند وعرضها، وبها أمكن إصلاح آلاف من المسلمين. وقد ترجم الكثير منها إلى الإنكليزيّة والبنكلة والكجراتيّة والسنديّة".[17]

ويقول السيّد سليمان الندوي:

"مجدّد كلّ قرن تعكس شخصيّته لأرقى وأفضل ما وصل إليه ذلك القرن من حسنات، فإذا كانت هذه المقولة صحيحة، فإنّ القرن الرّابع الّذي انتشرت فيه المطابع لمواكبة غزارة الإنتاج العلمي والثقافي والدّيني، بالإضافة إلى انتشار مجالس العلم – إلاّ أنّ انتشار المطابع فسح المجال أيضًا لأهل الباطل كي ينشروا أفكارهم المناقضة للشرع الحنيف– كان مناسبا لظهور مجدّد القرن التهانوي، الّذي تمثّلت فيه كلّ حسنات ذلك القرن العلمي، فاسم الشيخ على رأس القائمة الّتي تضمّ الأعلام المسلمين الّذين إذا قيس إنتاجهم العلمي بسنوات حياتهم الّتي عاشوها لكان الفرق مثيرًا للدهشة والاستغراب"،[18]

ويقول عنه أبو الحسن علي الندوي في معرض حديثه عن دار العلوم وخدماته العلميّة والدينيّة وتأثيرها في المجتمع الهندي:

"وكان لأحدِ أبناء دار العلوم ديوبند، وهو الشيخ أشرف علي التهانوي (م **1362**هـ) سهم كبير في نشر العقيدة الصحيحة وإصلاح النّفوس وتهذيب الأخلاق والدّعوة إلى الله، وقد عمل وحده عمل مجمع علمي كبير وألّف كتبا ورسائل تربو على ثمانمائة، وقد انتشرت انتشارًا كبيرًا وأثّرت في المجتمع الهندي الإسلامي تأثيرًا عظيمًا".[19]

كما يقول عنه عبد الحي الحسني في كتابه "نزهة الخواطر":

"الشيخ العالم الفقيه...الواعظ المعروف بالفضل والأثر...انتهت إليه الرئاسة في تربية المريدين، وإرشاد الطالبين، والإطّلاع على غوائل النّفوس ومداخل الشيطان، ومعالجة الأدواء الباطنة، والأسقام النفسيّة."[20]

وقد ورد وصفه في الموسوعة الإسلاميّة (The Encyclopedia of Islam) كالآتي:

"An eminent scholar, theologian, and Sufi, he lead a very busy life, teaching, preaching, writing and lecturing and making occasional journeys. A prolific

writer, his works exceed one thousand in number. These are mostly on tafsir, hadith, logic, kalam, akaid and tasawwaf".[21]

"هو (الشيخ التهانوي) المحقّق، العالم الفقيه الصوفي، عاش حياة حافلة في التدريس والإرشاد، والدّعوة، والسفر في سبيلها، والتصنيف الغزير، يتجاوز عمله العلمي ألف مؤلّف وجلّها في التفسير والحديث والكلام والمنطق والعقيدة والتصوّف".

نتناول هنا أبرز الاتّجاهات في فكره الإحساني الإصلاحيّ التجديديّ النيِّر، ومآثره بشيء من التفصيل:

3. جهود الشيخ المتمركزة في الجانب التربوي الإصلاحي:

إن الهند كما يعرف أعرق بلاد الله في الوثنيّة الّتي عجنت فلسفتها وحضارتها وآدابها، فهي أرض الآلهة والآلهات، أرض الأساطير والروايات، وأرض الأعياد والمواسم والمهرجانات والمآتم، تذكارًا لحوادث تاريخيّة دينيّة، وأبطال قوميّة خرافيّة، وقد أثّر كلّ ذلك في حياة المسلمين وعاداتهم تأثيرا عميقا، وعمّ عليهم الأمر على مدى الأيّام، والتبس الحقّ بالباطل بتهاون السلاطين والحكّام، وقلّة رواج علم الحديث في العهود الأولى، وشدّة اختلاط المسلمين بجيرانهم في كلّ مدينة وقرية، وحيّ، وزقاق.[22]

وقد قيّض الله تعالى التهانوي – في العهد الأخير– للصدع بالدعوة وتمييز الحقّ من الباطل والقشور من اللباب، وقام بمهمّة التجديد الإسلامي خير قيام، فنشر العلم الصحيح، وألّف كتبا دسمة قويّة مبتكرة كما ألقى الخطب والمواعظ وقام برحلات دعويّة في أنحاء الهند لإرشاد النّاس إلى العقيدة الصّحيحة الصّافية، واتّباع السنّة، وتجنّب البدع، ويشدّد فيها النكير على الطقوس والتقاليد الهندوسيّة، والشعائر غير الإسلاميّة الّتي تسرّبت إلى المجتمع المسلم، فانتفعت به الأمّة كثيرا وتخلّصت من أدران الشرك آلاف مؤلّفة من جماهير النّاس وعامتهم، يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: "كان من كبار العلماء الربّانيين الّذين نفع الله بمواعظهم ومؤلّفاتهم في إصلاح العقيدة والعمل، وقد كان نفع كتبه، ومجالس وعظه عظيما في إصلاح العقيدة والعمل، واستفاد منه ألوف من المسلمين ورفض عدد – لا يحصيه إلاّ الله– العادات والتقاليد الجاهليّة، والرّسوم والبدع الّتي رسخت في حياة المسلمين، وفي بيوتهم وأفراحهم، وأحزانهم بسبب الاختلاط الطويل بالكفّار، وأهل البدع والأهواء..."[23]

"ملفوظاته" (دروسه الشفويّة):

هذا وكان التهانوي يعقد كلّ يوم بعد الظّهر مجلسا عامّا في الخانقاه الإمدادي، يجتمع فيه تلاميذه ومسترشدوه وعامة النّاس، فكان يعظهم ويجيبهم على أسئلتهم المتفرّقة، ويحدّثهم بما بدا له من غير اقتصار على موضوع دون موضوع، وكان بعض الحاضرين في هذه المجالس يدوّن كلامه لما فيه من إفادات، فدوّن كلامه هذا باسم "الملفوظات" في اثنين وستين(62) مجلّدا وقد طبع منها اثنين وثلاثين (32) مجلّدا، [24] تشتمل على نوادر من علم وحكمة ولطائف وظرائف وقصص وأخبار، وموعظة وعبرة وإصلاح وإرشاد وأدب وخلق ونقد وردّ، وقد كان لهذه الملفوظات أثرا بليغا في تكوين الذوق الديني السليم والتشجيع على الأعمال الصالحة.[25]

يقول الأستاذ آفتاب عالم الندوي وهو يتحدّث عن كيفيّة مجالسه: "كان مجلسه مجلس علم وتربية وتزكية، يذكر فيه معاني ورموز التزكية والإحسان، ودراسات علميّة وتربويّة، وقصص المشائخ الربّانيين، وإذا ذكر الشيخ أحوال المصلحين من السّلف وقصصهم، غشيت المجلس غاشية من الهدوء والسكينة، وسحابة من البهجة والسرور، وكان الشيخ نفسه يشعر بالفرح والارتياح وتنفرج أسارير وجهه."[26]

4. بعض مقومات منهجه الإصلاحي التربوي:

هناك أشياء تتركّز فيها جهود التهانوي الإصلاحيّة والتربويّة، نذكر منها بالأخصّ:

العناية البالغة بحقوق العباد:

وهو من أهم ركائز نشاطه الإصلاحي والتربوي، حيث كان الشيخ يحثّ أتباعه ومسترشديه على أداء الحقوق، وكانت عنايته بحقوق العباد آكد وأكثر لما شاهد من حال كثير من النّاس أنّهم يواظبون على العبادات ويكثرون من ذكر الله ولكنّهم يقصّرون في حقوق العباد، ويخالفون الشرع في كثير من المعاملات، كما أنّ اهتمامه بتعليم آداب المعاشرة أكثر من اهتمامه بتعليم الأوراد والأذكار وسائر التطوّعات[27] وكان يقول:

"إنّي أصرف جلّ عنايتي بأن لا يتأذّى أحد مني أو من أصحابي، سواء كان ذلك الإيذاء بدنيا كالضرب والنّزاع، أو ماليا كغصب الحقوق والأكل بالباطل، أو ما يتعلّق بعرضه كإهانة رجل واغتيابه، أو نفسيا مثل أن يترك أحد غيره في اضطراب وتشويش أو يعامله بما يكرهه، وإن صدر شيء من ذلك خطأ فالواجب أن يبادر إلى طلب العفو، وإنّي أهتمّ بهذه الأشياء أكثر من اهتمامي بغيرها حتّى لو رأيت أحدا يخالف الشريعة في وضعه الظاهر فإنّ ذلك يحدث في نفسي نوعا من الألم، وأمّا إذا رأيت أحدا لا يبالي بأداء هذه الحقوق فإنّه يحزنني حزنا شديدا، وأدعو الله تعالى له بأن ينجيه من هذه الموبقات".[28]

اليسر والسّهولة:

وكان من أهمّ ركائز نشاطه الإصلاحي والتربوي أنّه كان ميسّرا لا معسّرا ومبشّرا لا منفّرا، ولم يكن فظّا غليظ القلب في وعظه وإرشاده ومنهجه الإصلاحي. ولهذا صار محبوبا لدى الجميع وقد اجتمع حوله نخب كلّ الطوائف وشتّى الجماعات فمنهم من هو موظّف في الدولة، ومنهم الأطباء والمدرسون ورجال القانون، والمهندسون والتّجار، والأغنياء الموسرون والفقراء المعسرون. وكان ييسّر لهم دينهم على حسب طبقته وأشغاله وثقافته، فلم يأمر الشيخ أن ينعزلوا عن العلاقات وينقطعوا عن الدنيا، ويتّخذوا لهم زاوية خاصّة يحبسون أنفسهم فيها، ولم ينصح بعزل الأولاد والأزواج والأقارب والأصدقاء ولم يأمر الأغنياء الأثرياء أن يتجرّدوا ممّا رزقهم الله من الخيرات والأموال، وما منحهم من عيش هنيء رغيد، بل أذكى فيهم روح العبادة لله وحده، واتّباع السنّة النبويّة، واختيار منهج الصالحين مع البقاء والاستمرار في نعم الله والتمتّع بما وهبهم الله من خير الدنيا، وهكذا جمع – رحمه الله– بين الحسنيين، وقدّم نموذجا رائعا ومثالا حيّا لنيل أعلى درجات التقرّب إلى الله والوصول إلى أسمى مكانة من الصّلاح والسعادة. ولقد قال في مناسبة من المناسبات: "إنّ الدّين سهل ميسّر، وكلّ هؤلاء النّاس الّذين ينتمون إلى مختلف الطبقات وشتّى المهن يشتغلون في وظائفهم ولا يمنعهم مانع من الامتثال للدّين والاستسلام لشريعة الله، إنّهم يقومون بواجباتهم، ويؤدون مسؤوليّاتهم على أكمل وجه، وأمثل طريقة، مع احتفاظهم بالامتثال لأوامر الله واتّباع شريعته، تراهم مشغولين في كسب المعاش وحصول الرزق، وابتغاء فضل الله، دون أي صعوبة تواجههم أو مشكلة تعترضهم، في القيام بواجباتهم نحو ربّهم ودينهم وشريعتهم، وبالتّالي فلا يُعذر أحد منكم الآن، بعد اتّضاح الحقّ وتبيّن الواقع، وستشعرون جيّدا بمدى سهولة الدّين ويسره، وكونه قابلاً للعمل، وملائما لطبيعة البشريّة جمعاء، ومسايراً للرّكب البشري بكلّ مقتضياته ومتطلّباته.[29]

إصلاح الأخلاق والمعاملات:

وممّا امتاز به منهج التهانوي اهتمامه البالغ بجانب الأخلاق والمعاملات، والتركيز على تصحيح أعمال الحياة العملية، يقول رحمت الله الندوي: "لم تكن طريقته في الإصلاح والتربية خاضعة للطرق الخاصّة المسلوكة المعروفة وما كان يقلّد أحدا في منهجه في التعليم، وإنّما كان جلّ اهتمامه هو تنفيذ أوامر الله وتطبيق شرع الله، واتّباع الرسول

الكريم ρ في كلّ شعبة من شعب الحياة، ولم تكن المنامات والمكاشفات والكرامات في نظره ذات قيمة ومكانة إزاء العقائد والعبادات، وتصحيح الأعمال".[30]

وفي هذا الإطار جاء قول التهانوي رحمه الله: "لأن أجعل مجلسي هذا مجلس الإنسان الكامل الّذي يتمتّع بكلّ معاني الإنسانيّة من الأخلاق والآداب والعقائد والأوصاف الفاضلة

أحبّ إليّ من أن أجعله مجلس الأولياء بمفهوم المعروف المشهور بين العامّة".[31]

وقوله: "أنا دائمًا أردّد هذه المقولة وأكرّرها للجميع، من أراد أن يتعلّم الولاية أو يحوز مراتب الأولياء فليغادر مجلسي هذا وليرحل حيث يشاء، ومن أراد أن يتعلّم الإنسانيّة ويتحلّى بأوصاف الإنسان الكامل الّذي يرضاه الإسلام، فليأت عندي"[32].

وكان يقول:"إنّ تعلّم أوصاف الإنسانيّة واجب أساسي، وتعلّم الولاية ليس بواجب، لأنّ المرء إذا لم تتحلّ حياته بصفات الإنسانيّة الكاملة، فإنّه قد يتسبّب في إيذاء الآخرين، أمّا الّذي يتعلّم الولاية، ولم تحصل له درجة الأولياء فإنّه لا يضرّ غيره شيئا".[33]

يقول محمّد تقي العثماني وهو يصوّر عن "الخانقاه الإمدادي" ونظامه: "وكانت زاويته "الخانقاه الإمدادي" دار تربية فريدة في منهجها تُهذّب فيها الأخلاق وتُثقّف فيها الأفكار، وتُعلّم فيها الآداب الفرديّة والاجتماعيّة،...وكان لهذا الخانقاه نظام محكم في كلّ شيء لا يستطيع أحد أن يخالفه وكان هذا النّظام نفسه مثالا حيّا لآداب المعاشرة الإسلاميّة يحضّ المرء على أن ينظّم حياته ويضبط أوقاته ويعنى بأداء الحقوق والاحتراز عن إيذاء الآخرين حتّى صارت هذه الزّاوية "مصنعا" كبيرا يصنع فيها الرّجال وتصاغ فيها الأخلاق الحسنة والآداب الصّالحة".[34]

تفضيل الشريعة على الطريقة:

يعتبر تفضيل الشريعة على الطريقة جانبا مهمّا تتركّز عليه جهود التهانوي الإصلاحيّة، فقد أوقف بمنهجه هذا تلك الفتنة الخطرة النّاجمة في أوساط السلوك والطريقة الّتي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة أو الأعمال الظاهرة.[35] ينبّه الشيخ إلى الخطأ والالتباس العظيمين في ما وقع فيه النّاس حتّى العلماء منهم بأنّ تزكية القلب هي الغاية المثلى وإن لم تخضع للأحكام الظاهرة للشريعة ومهما كانت طريقته، وأوضح أنّ امتثال الأحكام الظاهرة واتّباع الرسول أهمّ الأعمال وأوجبها، وأنّ الطريقة الّتي لا تخضع لها ولا تحافظ على إكمالها لا يمكن أن ينال بها المرء رضا الله سبحانه. فإذًا التصوّف الحقيقي عنده ليس إلاّ أن تزكى النفس بالامتثال الكامل للشريعة الإسلاميّة، يقول التهانوي: "كلّ ما لا يجوز في الشريعة فهو خطأ عند الصوفيّة فإنّ الصوفيّة لا يخرجون عن جادة الشريعة وحدودها ومن خرج منهم عن حدود الشريعة يفوته التصوّف"[36] ويقول: "ما لنا طريق إلى الله إلاّ على الوجه المشروع، لا طريق لنا إلى الله إلاّ ما شرّعه ومن قال: إنّ ثمّ طريقا إلى الله خلاف ما شرّع، فقوله زور".[37]ويقول: "ولو نظرتم إلى رجل عالٍ في الكرامات حتّى أنّه يرتقي في الهواء فلا تغترّوا به حتّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنّهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة."[38] ويقول: "الطرق كلّها مسدودة على الخلق إلاّ على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ".[39]

5. مآثر التهانوي التجديديّة في مجال التصوّف والتزكية:

هذه صفحة مشرقة من حياة التهانوي في مجال الإصلاح والتجديد في هذا العلم والفنّ الإسلامي العريق[40] فقد وفّق الشيخ في تنقيته ممّا التصق به من البدع والزوائد، وتسهيله لأهل العصر، فكان عمله ذلك عملا تجديديّا اعترف به كبار أهل الفنّ.

يقول أبو الحسن علي الندوي وهو يصوّر عمله التجديدي في هذا الباب: "كان الشيخ التهانوي من أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة، والعمل، والرّجوع إلى الله، وإصلاح النّفس، وانتفع النّاس بكتبه انتفاعا لم

يعرف لعالم آخر في هذا الزمان، وقد شرح الله صدره لتيسير هذه الطريقة – طريقة التزكية والإحسان– وتقريبها، وتنقيح الغايات من الوسائل، واللّباب من القشور والزوائد، وبلغ فيها درجة الإمامة والاجتهاد، حتّى أقرّ له كبار العلماء، والشيوخ والمربّون بالتفرّد في هذا الباب، والتجديد لهذا الفنّ، ووفّقه الله عن طريق التربية والتأليف والوعظ لتجلية حقيقة التصوّف، وإقناع النّاس بأهميته، والحاجة إليه، وتيسيره لكلّ فرد على حسب طبقته، وأشغاله، وثقافته وعقليّته، حتّى سهل منال، ودنا جناه، وأقبل عليه العلماء والزعماء والمؤلّفون والموظّفون وكبار العلماء والمثقّفون والمعلّمون في الجامعات، ممّن تأثّر بالحضارة الغربيّة، والفلسفة الحديثة، وتعرّض للإلحاد والمروق من الدّين، والعاطلون والمشتغلون، وأهل النبوغ والذّكاء، وأهل الحرف والصّناعات، وأصحاب النّفوس القويّة، وأهل الهمم الضعيفة، على السّواء، حتّى كان للتصوّف وإصلاح الباطن مكانة في الطبقة المثقّفة، ودولة في العهد المادّي، وتخرّج على مدرسته الصوفيّة زهاء مائة وأربعين مسترشداً من أشهرهم العلاّمة السيّد سليمان الندوي، ومولانا شبير أحمد العثماني، من كبار مؤسّسي باكستان، ومولانا ظفر أحمد التهانوي، من كبار علماء باكستان، ومولانا وصيّ الله المربي الكبير في الهند، ومولانا عبد الباري الندوي من كبار الأساتذة المفكّرين".[41]

وقبل أن نقتبس بعض أفكار التهانوي في هذا المجال جدير بنا أن نلقي نظرة سريعة على ضوابط التجديد والمجدّد الّتي نصّ عليها المحقّقون أمثال الحافظ ابن حجر، والسيوطي، والمناوي، وغيرهم[42] وهي كالتّالي:

1– أن يكون متّبعا لا مبتدعا.

2– أن يكون محْييا للسنّة، طامسا للبدعة.

3– أن يشتهر بين أبناء عصره ومصره بالعلم، ويكون مشارا إليه بالبنان.

4– أن يكون مكثرا من العلم، ناصرا لأهله، ذائدا عن حمى الدّين، متّصفا بالصّفات الكاملة، إذ المقصود أن يكون من علمه صادعًا بالحقّ، وناصرًا أهله.

5– أن يكون هذا الاشتهار على رأس مائة سنة فيكون ثابتا على دين الإسلام، داعيا إليه، ومحذّرا من كلّ دخيل عليه، واثقا ممّا هو عليه، لا يغترّ بما تغتر به العوام، ولا ينخدع كما تنخدع الهوام، وإنّما ينظر إلى الأمور بعين الحكمة الإلهية، وعلى مقتضى الشريعة المحمّدية، ويكون النّاس بحاجة لعلمه ومؤلّفاته وينتفعون بها.[43]

ولدى البحث في هذه الأمور ومدى تحقّقها في شخصيّة التهانوي وآثاره وجدناها أمرا واقعا وحقيقة ماثلة للعيان ، فإنّ كلّ من له إلمام بالتّاريخ الإسلامي في الهند واطّلاع على سيرعلمائها وتراجمهم والقائمين بأعمال الإصلاح والتجديد فيها يعرف حقّ المعرفة أنّ التهانوي من أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح الفكر والعمل في العهد الأخير، يقول أبو الحسن علي الندوي:

"كان من كبار علماء هذا العصر الربّانيين، وأعظم مؤلّف في هذا العصر على الإطلاق، ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة والعمل، والرّجوع إلى الله، وإصلاح النّفس، وانتفع النّاس بكتبه انتفاعا لم يعرف لعالم آخر في هذا الزّمان".[44]

ويقول السيّد سليمان الندوي: "حكيم الأمّة، مجدّد الطريقة، العالم الربّاني، الشيخ أشرف علي التهانوي – رحمه الله– الّذي وفّق بقلمه بين الفقه والتصوّف بعد صراع شديد دام بينهما قرونا طويلة، وقد نفع الله البشر بتعليمه وتربيته، وتوجيهاته، وإرشاداته الدعويّة الحكيمة حوالي نصف قرن، إذ كشف النقاب عن الحقائق الإيمانيّة، وأزاح الستار عن الدقائق الفقهيّة، والأسرار السلوكيّة، والحكم الربّانية، فلقّبه العالم بحكيم الأمّة، وحقّ له أن يلقّب بهذا اللّقب، و قام دورا بارزا في مجال تجديد الطريقة فطهّرها من أرجاس الرّسوم، والتقاليد غير الإسلاميّة، متّبعًا طريقة السّلف الصّالح".[45]

6. نماذج من آرائه وإصلاحاته في مجال التصوّف والإحسان:

كانت في الهند – في عصر التهانوي– طوائف من المتصوّفة المبتدعة الّتي لا يعني التصوّف عندها إلاّ التزام بعض الرّسوم والأشغال كما يعتقدون أفكارا ليس لها أصل في الكتاب والسنّة، فقام الشيخ بإصلاح الأحوال، وإليكم ما قام به في هذا الصّدد من خلال الأدب الملفوظاتي في مؤلّفاته المطبوعة:

حقيقة التزكية والتصوّف:

كان النّاس في عصر التهانوي في أمر التصوّف والسّلوك ما بين إفراط وتفريط، فطائفة تزعم أنّ التصوّف والسّلوك من البدع المحدثة ليس له أصل في الكتاب والسنّة، وأخرى تعتقد أنّ التصوّف والسّلوك اسم لنوع من الأوراد، والأشغال الخاصّة والكشف والإلهام. والمواجيد، والإشراقات والأذواق الّتي تعترض لسالك هذا الطّريق، وأنّ هذه الأحوال والتجارب النفسيّة هي المقصودة بالدّين ومن فاز بها تخلّص من ربقة أحكام الشريعة الظاهرة وصدرت منه بعض الشعوذة والتصرّفات أو ظهرت له بعض الكشوف والمواجيد في اليقظة أو المنام واتّخذه النّاس قدوة وإمامًا، مهما زاغت عقيدته أو فسدت أعماله وأخلاقه.[46]

فقام الشيخ بالردّ على هاتين الفكرتين نظريًا وعمليًا. أمّا نظريًا فقد أثبت في كتبه وخطبه ومواعظه ومجالسه أنّ التصوّف والإحسان جزء من أجزاء الدّين وشعبة من شعب الإسلام، وأمّا الكشوف والخوارق والشعوذة والتصرّفات والرّؤيا والمواجيد فأثبت التهانوي أنّها ليست من التصوّف في شيء.

فالمقصود في التصوّف هو عمارة الظاهر والباطن. أمّا عمارة الظاهر فبالأعمال الصّالحة وأمّا عمارة الباطن فبذكر الله وترك الرّكون إلى ما سواه وتحليته بالأخلاق الحميدة وتطهيره من أنجاس الأخلاق الذميمة. فالفائز النّاجح في هذا الطريق هو الّذي يتحلّى بهذه الفضائل مع الامتثال التّام للشريعة الإسلاميّة والإتّباع الكامل للسنّة النبويّة، فإن أعطاه الله بعد ذلك نصيبا من الكشوف الصّادقة فهي منّة زائدة من الله تعالى وأمّا الّذي حُرم من الأخلاق الفاضلة واتّباع السنّة النبويّة ولم يتجنّب الرذائل النفسيّة، فهو بعيد كلّ البعد عن التصوّف والسّلوك حتّى لو كان يطير في الهواء أو يمشي على الماء أو يرقى في السماء، يقول الشيخ في هذا الصدد: "إنّ حقيقة التصوّف هي معرفة الكتاب والسنّة وانصباغ الظاهر والباطن بهما وحصول الكمال في الورع، أمّا الأحوال والكيفيّات والكشفيّات والإلهامات، فهذه كلّها ليست من التصوّف الإسلامي، ولا هي مطلوبة في الطريق وإنّما تحصل لكلّ أحدٍ حسب صلاحه ومعدّاته واستعداده للمجاهدات والرياضات وكثرة الذّكر والفكر والمراقبات. فما كان من هذه الأحوال والكيفيّات موافقا للسنّة فهو أفضل وما لا يوافقها فليس بمستحسن إلاّ أنّه لا لوم ولا ملامة على صاحب الحال لأنّه في ذلك معذور، وكذا ما كان من الكشف والإلهام لا يخالف نصوص الشريعة فهو مقبول وإلاّ فهو مردود".[47]

ويقول أيضا:"كلّ ما لا يجوز في الشرع فهو خطأ عند الصوفيّة أيضا، فإنّ الصوفيّة لا يخرجون عن جادّة الشريعة وحدودها، ومن خرج منهم من حدود الشريعة يفوته التصوّف".[48]

ويقول:"أنا على يقين قاطع أنّ معرفة القرآن والحديث هي أعظم الولاية، وأفضل درجات التصوّف".[49]

ليست كلّ تزكية تصوّفا:

فالتصوّف عند التهانوي هو التزكية الّتي تخضع لأحكام الشريعة الإسلاميّة واتّباعها والامتثال لها .ومن هنا جاء إنكار الشيخ على الجهلة من الصوفيّة الّذين يظنّون أنّ التزكية أرفع درجة من الشريعة ولذا لا تخضع لأحكام الشريعة الظاهرة، ففنّد مزاعمهم وأوضح أنّ امتثال الشريعة الإسلاميّة هو غاية منشودة، فالتصوّف الّذي لا يخضع للشريعة ولا يحافظ على إكمالها لا يصحّ ولا يقبل، وإليه يشير مسترشده عبد الباري الندوي وهو يشرح لنا حقيقة التصوّف عند التهانوي رحمه الله: "إنّ من الخطأ والالتباس العظيمين ما وقع فيه بعض كبار العلماء، بأن حسبوا طرق التزكية السائدة اليوم هو التصوّف بعينه، ولذلك دخل الإشراقيون على وجه العموم، ورهبان البراهمة على وجه الخصوص في زمرة المتصوّفة، وهذا الالتباس الخاطئ لم يدخل في عقول النّاس إلاّ من الكلمة المعروفة الذائعة:"أنّ التصوّف لا مذهب له"، فتحرّر التصوّف بذلك من قيد الإسلام، وجاز له أن يتّحد إذا شاء مع كلّ عقيدة ودين غير الإسلام. قال أصحاب هذا الفكر الخاطئ: إنّ التصوّف هو أسمى وأرفع من أن يتقيّد بظواهر الأعمال، وإنّه لزعم فاسد لا حقيقة له، ولا نصيب له من الصحّة"[50].

وقد استنكر التهانوي هذه الفكرة لما قال: " ليست كلّ تزكية تصوّفا، وإنّما التصوّف هو التزكية الّتي تخضع لأحكام الشريعة الإسلاميّة وتحصل باتّباعها والامتثال له، وإنّما هي الّتي تصلح للمرء أمرَ آخرته، ويُدخل صاحبها تلك الجنّة

الّتي وُعد بها المتّقون، إنّ الله تعالى قال:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [51]، وذلك باتّباع الشريعة الإسلاميّة، لا بمخالفتها"[52].

أمّا الرياضات الروحيّة، والمجاهدات البدنيّة الكثيرة الّتي يأتيها رهبان من البراهمة وغيرهم،فيوضّح الشيخ أنها ليست من التزكية والتصوّف في شيء، مهما قيل عنها، ومهما سُمّيت بأسماء التصوّف، ولن تحمل تلك الأسماء والألقاب معنى، ولا حقيقة ولا شأن لها بالتصوّف، إنّها ألفاظ مجرّدة ومردودة عند الله غير مقبولة، وبالتّالي لا يمكن لرجل أن يحرز رحمة الله، وينال الفلاح يوم الآخرة، وحياته متعارضة مع الشريعة الإسلاميّة.[53]

فهذه الفكرة السليمة المحتملة في أمر التصوّف مبسوطة في شتّى مؤلّفات التهانوي ومواعظه بدلائلها من الكتاب والسنّة، وشواهد من سير الصحابة والأولياء، وحججها من العقل السليم والتجارب النفسيّة ودفع ما يثار حولها من شبهات وتطبيق أعمال الصوفيّة الكبار على الكتاب والسنّة بما يطمئن القلوب.

وأمّا عمليّا فردّ التهانوي على هاتين الفكرتين بعمله الموافق للسنّة النبويّة وتربية مسترشديه على منهاج السنّة. فكان كلّما رجع إليه أحد للبيعة أمره أوّلا بأداء واجبه في الشريعة، سواء كان من حقوق الله أو حقوق العباد. وكانت عنايته بحقوق العباد آكد وأكثر كما كان اهتمامه بها أكثر من اهتمامه بتعليم الأوراد والأذكار وسائر التطوّعات.[54]

موقفه من بيعة الصوفيّة والاشتغال بأشغالهم:

يستحبّ عند الشيخ – إذا فرغ الإنسان من تصحيح العقائد، وتحصيل المسائل الضروريّة من الشرع – أن يبايع شيخا راسخ القدم في الشريعة، زاهدا في الدنيا، راغبا في الآخرة قد تمرّن في المنجيات، وتبتّل عن المهلكات، ويضع يده في يده ويبايعه ويشتغل بأشغال الصوفيّة من الذّكر والفكر ويكسب النّعمة العظمى الّتي هي المعبّر بها في لسان الشرع بـ"الإحسان".

إلاّ أنّ الشيخ يعتبر هذه البيعة عقد بين الشيخ والتلميذ، أو المرشد والمسترشد، يتعهّد فيه الشيخ بالإصلاح والإرشاد، والمريد بالاتّباع والتقليد فحسب، وهو لا يرى لزوم صورة البيعة التقليديّة، يقول الشيخ: "البيعة والمبايعة لها حقيقة ولها صورة ، فالحقيقة عقد بين المرشد والمسترشد ، فمن المرشد للتعليم ومن المسترشد للاتّباع، فلو كان بينهما علاقة النبوّة والأمّة فهذا العقد من النبيّ للتبليغ ومن الأمّة للإيمان، حاصله التزام جميع أحكام الإسلام، وهذا القدر كاف في تحقيق هذا. وعليه يحمل قول من قال – لو صحّ وثبت – من لا شيخ له فشيخه الشيطان، وإلاّ فليس أحد من المسلمين مصداقه ، وهذه البيعة فرض . ثمّ بعد هذه البيعة بيعة الإيمان، إذ بويع أحد على يد آخر لأمر من الأمور، فذلك تجديد لهذا العقد والعهد كما في حديث عبادة بن الصّامت قال: قال رسول الله ρ – وحوله عصابة من أصحابه – :"بايعوني... إلى قوله فبايعناه على ذلك.[55]

وإن كان المرشد والمسترشد كلاهما من الأمّة –كما هو الحال بعد زمن النبوّة – فالعقد بينهما هي البيعة الّتي تُعرف الآن بالمشيخة والإرادة، وهذه البيعة أيضًا مثل الصورة الثانية المذكورة (أعلاه) تقوية للعهد الإسلامي والإيماني واتّباع للسنّة الّتي ذكرناها بعنوان تجديد العهد. وهذه البيعة لا دليل على كونها فرضًا أو واجباً أو سنّة مؤكّدة، إلاّ أنّها ثبتت وصحّت من حضرة النبوّة فهي مستحبّة. ومن قال: إنّها فرض أو واجب، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[56] فذلك قول بلا دليل وتفسير بالرّأي، والصّحيح تفسيره بـ"وابتغوا إليه القرب بالطاعات، وأيضا لا يقال: إنّها سنّة مؤكّدة لأنّه لم يثبت منه ρ المداومة على هذه البيعة فقد كان في زمنه ρ ألوف من المسلمين ولم يبايعوه بهذه البيعة الخاصّة"[57].

هذا الكلام في بيان حقيقة هذه البيعة، وأمّا الصورة والمراد بها وضع يد أحدهما على يد الآخر أو الأخذ بالثوب ونحوه، فيراها الشيخ من مباح من المباحات وليس بدرجة من درجات المأمور به. حتّى لا يحكم عليه بأنّه مستحبّ، وذلك لأنّ ما روي في ذلك عن النّبي ρ كان من قبيل العادة لا من جهة العبادة والدّين، فإنّ العرب كانت عادتهم كذلك عند عقد من العقود بينهم أو معاهدة... [58].

يبين الشيخ حكم هذه البيعة فيقول: "والحكم في هذه البيعة الّتي اعتادها الصلحاء أنّها لا تفوق المستحبّ باعتبار حقيقتها، وهيئتها الخاصّة لا تفوق المباح. فالإفراط بدرجتها ومرتبتها علمًا أو عملاً بأن يقال إنّها شرط النّجاة أو يلام

تاركها، كلّ ذلك غلوٌّ في الدّين واعتداء على حدوده، فلو أنّ أحدًا لم يبايع شيخا طيلة عمره على طريق هذا القوم وعُرفهم، واهتمّ بالدّين والعمل به مع الصّدق والإخلاص بعد أن يحصل له معرفة بالدّين تعلّمًا وسؤالاً واستفسارًا من العلماء فذلك ناج ومقبول ومقرّبٌ بإذن الله، إلاّ أنّه ثبت بالتجربة والمشاهدة أنّ المطلوب من العمل الصالح – بدون خطر وضرر– لا يحصل عادة إلاّ باتّباع شيخ كامل وتربية منه ويكفيه الالتزام فقط و لا يشترط البيعة المتعارفة لذلك".[59]

هذا وقد بيّن –رحمه الله – أنّ مجرّد بيعة لا تجدي نفعا إن لم تصحب بالعمل والجهد، يقول الشيخ: "ويظنّ بعض النّاس أنّ الشيخ سينقل مريده في نظرة واحدة إلى الكمال، فلو كان الأمر هكذا، لما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلى أيّ جهد، إذ لم يكن في النّاس أكمل نظرا، وأعظم تأثيرا من الرسول عليه الصلاة والسّلام، ولو وقع ذلك حينا ما خرقا للعادة، فلا يقع مرارا، فإنّ الخوارق ليست دائمة لازمة، ومن الخطأ العظيم أن يتّكل الإنسان".[60]

هذا ويحذر التهانوي من هذا التعلّق الفارغ، و هذه البيعة الاسميّة الرسميّة، كما ينقد هذه الظاهرة الموجودة عند بعض المرشدين والمسترشدين ويقول: "وإنّي لأعجب للنّاس أنّهم لا يعملون إذا أُمروا بالعمل، ولا يريدون إلاّ اسم البيعة، لذلك ترى أنّ المرشدين الّذين يأخذون البيعة ولا ينصحون بعمل تجد مريديهم أعظم سرورا بذلك، لأنّ العمل شاقّ على النّفوس، والبيعة الّتي لا تكلّف شيئا ترغب فيها الطباع، أمّا أنا فلا أبايع بل أنصح بالعمل فيُسخطهم ذلك".[61]

حقيقة الأذكار والأوراد:

وقع كثير من النّاس في خطأ جسيم في باب الذّكر إذ حسبوا أنّ مجرّد الذّكر يكفي لإصلاح الأعمال، والأخلاق ويحتجّون لزعمهم هذا بأنّه قيل: أنا جليس من ذكرني[62]، وهو يدلّ على أنّ العبد يتقرّب من الله عزّ وجلّ بالذّكر فإذا تقرّب إلى ربّه لا يمكنه أن يعصيه، وقد شاعت هذه الفكرة عند جهلة من الصوفيّة حيث يلقون عدّة أذكار وأوراد ويعتقدون أنّها هي وظيفة المرشد فلا صدّ لفساد الأعمال والأخلاق، ولا عتاب، ولا استجواب، ولا تدبير، ولا مراقبة الأحوال والإصلاح.

أمّا التهانوي فإنّ هذه الأذكار والأوراد تأتي في منهجه في الدّرجة الثانية بل الثالثة. أمّا الدرجة الأولى فكان ذلك عنده نقد الأعمال والأخلاق فقد كان كثيرا ما يقول وهو يردّ على القائلين بأنّ الذّكر هو كلّ شيء ولا حاجة إلى إصلاح الأعمال:

"وهذا خطأ فاحش لأنّ وسائل الإصلاح داخلة في كلمة (ذكرني) فلا يثبت (ذكر الله) بدون معالجة الأمراض ومداواتها".[63]

وقال في مقام: إنّ مجرّد الورد لا يكفي أبدا، أحلف بالله أنّ شيوخ الأوراد المجرّدة لا يوجد لديهم الإصلاح، والإصلاح لا يأتي إلاّ باختيار طرق الإصلاح".

وقد ورد منه في هذا الصّدد أيضا: "وهكذا تجد كثيرا من الجهلة يحسبون الأذكار والأشغال، والمراقبات، والرياضات أو الأحوال، غايات ومنشودات أصيلة للتصوّف والولاية، وهذه جهالة خالصة، لأنّ المقصود هو أعمال الظاهر والباطن لا غير، أمّا بقيّة الأذكار والأشغال المتعارفة أو الرياضات والمراقبات، فليست إلاّ تدابير ووسائل لإصلاح الأعمال، وأمّا الأحوال فهي الثمرات الّتي ليست بلازمة، أي الثمرات الّتي لا يلزم أن تظهر، وليس تحصيلها بواجب أو منشود".[64]

حقيقة المجاهدة:

إنّ حقيقة المجاهدة كما يقرّرها التهانوي – مستقاة من القرآن والسنّة– هي التدريب على مخالفة النّفس ليمكن التغلّب على الشهوات، وهو الّذي تعبّر عنه النّصوص بالجهاد بالنّفس.وقد جاء في تقرير المجاهدة قوله: "مطالب النّفس اثنان أحدهما: الحقوق، وآخرهما: الحظوظ، أمّا الحقوق فلا يقوى الجسم إلاّ بها، ولا يكون بدونها، وأمّا الحظوظ فهي فاضلة عليها، وتأتي بعدها، ففاية المجاهدة هي أن تبقى الحقوق وتفنى الحظوظ".[65]

إلاّ أنّ الشيخ يمنع من الإفراط والتفريط في المجاهدة فهو يمنع من تقصير يقع في الاستجابة لمطالب النّفس الحقيقيّة كما يردّ على طرق المجاهدة المتعارفة عند المتقشّفين من الزّهاد والإشراقيين، يقول التهانوي وهو يردّ على هذه الفكرة الخاطئة عند المتصوّفة: "فأصبح الصوفيّة يزعمون أيضا أنّ رضا الله لا يحصل إلاّ بمخالفة النّفس، وكلّما كانت هذه المخالفة أشدّ، كان رضا الله أعظم وأكثر، ولو كانت هذه المخالفة لا تتفق مع الشريعة الإسلاميّة، حتّى إنّه قد يبدو لبعضهم، فيحرّمون على أنفسهم اللّحم فلا يأكلونه، ويمتنعون عن البارد من الماء فلا يشربونه، ومنهم من يجتنب الفراش الوثير فلا يضطجع فيه، وغلت طائفة ممّن حرّمت نعمة الإسلام، فتجاوزت إلى حدّ أنّهم قد يجفّفون جوارحهم ويميتونها".[66]

فهذه كلّها أعمال نسبها التهانوي إلى الجهالة العمياء، بحيث لا توجد مثل هذه المجاهدة عند المحققين المحتفظين بالأوامر الشرعيّة، فهم لا يتعدّون حدود الإباحة، ولا يباشرون هذه المجاهدة إلاّ بصفتها علاجا ومداواة، ولا يدع أحدهم طعاما إلاّ إذا رأى فيه ضررا طبيّا، وما أشبه ذلك، وإذا تركوه فلا يعدّون تركهم له شيئا من التحنّث، وأمّا إذا تركوه ظانين أنّ تركه عبادة ونسك، ورجوا من هذا العمل جزاءً ومثوبة، فقد أذنبوا، لأنّهم أضافوا بذلك إلى الشريعة الإسلاميّة حكما لم يكن فيها من قبل، وهذا هو السرّ في فساد البدعة وقبحها، فهؤلاء إذا هجروا شيئا لا يهجرونه إلاّ للوقاية من مرض أو للاحتراز من ضرر مادّي، أمّا المفرطون في هذا الشأن فلا يتركونه إلاّ لأنّهم يحسبون هذا العمل عبادة وذريعة إلى التقرّب إلى الله، ووسيلة من وسائل المثوبة.[67]

تقريره للزّهد:

يقول التهانوي وهو يردّ على المتصوّفة الجهلة المتعسّفين الّذين شرحوا الزّهد بالتبتّل الكليّ عن أمور دنيويّة، وترك العلاقات والاعتزال عن الطيبات: "أسفًا لهؤلاء المتصوّفة المتعسّفين الجهلة، إنهم زيّفوا التصوّف وأفسدوه، وجعلوه مُخيفا موحشا، يقترحون الاعتكاف الصوفي، ويشيرون بتطليق الأزواج، وينصحون بالتبتّل عنهنّ، وإقصاء الأهل والأولاد، وكانت تؤخذ أربعون حبّة حمص، فلا يتناول منها إلاّ حبّة كلّ يوم، وقالوا: إنّ الولاية والوصول إلى الله لا تتأتّى بغير هذا، أمّا أنا فأقول بكلّ صراحة: "إنّ الولاية تحصل حتّى على البسط الناعمة والوسائد الليّنة، وفي الإمارة، ومع اللذائذ من الأطعمة، لكن يشترط أن يكون الطالب خارج البيت وفي خدمة شيخ كامل"[68].

وقال رحمه الله: "إنّ السّالك لا يحتاج إلى كساء غليظ وثوب مرقّع، بل تحصل له المشيخة إذا أراد في الخلع الفاخرة، والملابس النّاعمة، وفي الملوكيّة كذلك، لكن بشرط أن يكون طلبها بطرقها".[69]

وقال في موضع آخر: "فليس الإقلال من الأكل زهدا، وليس غاية منشودة؛ لأنّنا إذا زهدنا في شيء، لم نستطع أن نزيد في خزائن الله شيئا، مع أنّه يجب أن لا يأكل الرّجل إلى أن يتخم أو يتألّم من بطنه، أمّا الشيخ إمداد الله – رحمه الله– فكان من رأيه أن يمتّع الرّجل نفسه، ويلبّي رغبته، ثمّ يستخدمها في أعمال الخير ويجهدها، وحقّا إذا عرف الرّجل أنّه قد أعدّ له طعام شهي، فإنّ نفسه تنشط لإكمال العمل وإتقانه، وتسرّ لتدرك هذا الطعام الشهيّ، فلا بدّ للنّفس من حافز...".[70]

ولهذا يرى التهانوي صيانة الصحّة والمحافظة عليها من أوجب الأمور، وذلك بترفيه الدّماغ والقلب، وتقويتهما بمداومة تغذيتهما ومداواتهما، فلا يُحسن الزّهد في الغذاء، حتّى يسري الوهن، ويتولّد اليبس في الدّماغ، كما يرى من الواجب أن لا يفرط الرّجل في تناول الغذاء، فتختلّ قوّة الهضم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى النوم فإنه من الواجب على المرء أن يسلك مثل ذلك الاعتدال في النّوم، فلا يفرط فيه، لئلاّ يكسل ولا يقصر فيه كذلك، لئلاّ يطرأ على قواه الجفاف والتخدير.[71]

مقام الكشف والكرامة:

يقول التهانوي:"إنّ النّاس يعدّون الكشف من أجلّ الكمالات، مع أنّه لا قيمة له في التقرّب إلى الله، وتتّفق طبائع بعض النّاس مع الكشف دون غيرهم، كما أنّ عيون بعض النّاس نافذة بعيدة النّظر، في الوقت الّذي لا يُبصر الآخرون إلاّ الشيء القريب، وقال مشيرًا إلى فسقية المسجد: هَبُوا أنّ امرأ لا يجاوز بصره هذه الفسقية، مع أنّ بصر رجل آخر غيره يجاوزها إلى الشارع في الخارج! فبهذا يُعدّ الرّجل الّذي يبلغ نظره إلى الشارع من المتقرّبين إلى الله؟ كلاّ! بل إنّ

هذا نوع من البصر لا علاقة له بالقربات، وأحلف بالله أنّه مهما حصل لامرئ ما من ألوف الكشوف، أو أكثر من ذلك، فإنّه إذا رجع إلى وجدانه لشعر أنّه لم يكسب في التقدّم ولو قدرًا يسيرًا، غير أنّه إذا سبّح الله ثلاث مرّات، ثمّ رجع إلى وجدانه أحسّ أنّه قد تقدّم في القرب إلى الله، فليختبر هذا من شاء من أهل الذّوق وأصحاب الوجدان"[72]

وها هو الشيخ عبد الباري الندوي أحد تلامذة التهانوي ينقل لنا ملخّص كلام شيخه: "كيف يكون الكشف من علائم القرب والولاية إذا لم يشترط فيه كون المرء مؤمنا؟! فإنّه يحصل للمؤمن والكافر والملحد ولغيرهم على السواء، فالحقيقة أنّ الكشف ليس بشيء عظيم، لأنّ الكافر أيضا إذا جاهد وتروّض حصل له، ويحصل للمجانين أيضا، والكشوف إذا كانت موافقة للقواعد صحّ العمل بها، وإلاّ وجب تركها" [73].

ولقد تكلّم الشيخ عن الكرامات – أيضا – وبيّن حقيقتها، وردّ مزاعم الجهلة في هذا الصّدد و خلاصة موقفه أن الكرامة هي الّتي تظهر من متّبع كامل، ولا تطّرد اطّرادًا، لأنّها إن اطّردت لم تعد كرامة، وإن لم تخضع الكرامة الّتي ظهرت منه بشريعة نبيّ من الأنبياء، لم تعد كرامة، مثل (اليوغا) و(السحرة) الّذين تصدر عنهم مثل هذه الأحوال، ولو كان يدّعي ويقول: إنّه متّبع نبيّ، لأنّ عمله يخالف شريعة الأنبياء، وسواء كان الاختلاف في الأصول كأهل البدع، أو كان في الفروع، كالفاسقين والفجّار، والكرامة من هؤلاء لن تسمّى إلاّ استدراجا، ولا يسمّى كرامة إلاّ من متّبع كامل في التّقوى يقول الشيخ: "وأصبح الحال في عصرنا أنّ النّاس يلقّبون كلّ رجل تظهر منه كرامة قطبا وغوثا، أيّا ما كانت عقيدته وأعماله، وقد صرّح السّلف بأنّك إذا رأيت أحدا يحلّق في الفضاء أو يجري على الماء، ولا يحافظ على الشريعة فلا تحسب له حسابا، وقال الصلحاء: إنّ ستر الكرامة واجب على المرء، إلاّ إذا كان محتاجا إلى إظهارها". [74]

وقال في موضع آخر:" الولاية لا تفتقر إلى خوارق، ولم تظهر الخوارق من بعض الصحابة، ولو مرّة واحدة في حياتهم، والخوارق تظهر في أكثر الأحيان من (اليوغا) وهي من نتائج الرياضة، ودرجة خرق العادة أقلّ من الذّكر القلبي، وقد كتب صاحب (العوارف) عن الّذين لا تصدر منهم الخوارق أنّهم أفضل من أهل الخوارق، إنّ من أكبر كرامات العارفين أن يستقيموا على جادّة الشريعة، ومن أعظم كشوفهم أن يتبيّنوا استعداد الطالبين، ثمّ يربّوهم وفق ذلك". [75]

وقد ردّ الشيخ على مزاعم بعض المهووسين في هذا الباب فقال: "وبعض النّاس يظنّون أنّهم سيرون أنوارًا وسطعات إذا ما ذكروا واشتغلوا، أو أنّهم سيسمعون أصواتا فليس هذا كلّه إلاّ هوساً وبلاهة، إنّه لا يجوز أوّلا: أن تحصل تلك الآثار على الذّكر والشغل، ولا يحتاجان إلى ذلك، وثانيا: لا تكون تلك الأنوار والأصوات في بعض الأحيان إلاّ وليدة ذهنه، وليست شيئا آتيا من عالم الغيب، وثالثا: لو انكشفت أشياء ذلك العالم، فأيّة فائدة من ذلك؟ إذ لا يزداد التقرّب بتكشّف عالم، إنّما خلق الله للتقرّب إليه الطاعات، قد يرى الشياطين الملائكة في بعض الأحيان، ولا يزال هؤلاء الشياطين شياطين، ثمّ ستنكشف حقائق ذلك العالم بعد الموت، للمؤمن والكافر على السواء، أفيحصل بذلك القرب المقصود لكلّ أحد؟!". [76]

هذا، وقد تناول الشيخ مواضيع هامة في علم التصوّف والسلوك في كتاباته وشرحها شرحا علميّا يجمع بين العلوم الظاهرة والباطنة.[77] كما حاول في مصنّفاته في هذا المجال إزالة سوء الفهم الواقع في المسائل الخلافيّة بين أهل الشريعة والطريقة.[78]

وقد ألّف في هذا العلم مؤلّفات ذات قيمة علميّة كبيرة أشهرها مثنوي زيروبم (شرح المثنوي لمولانا روم)، [79] و"التنبيه الطربي في تنزيه ابن عربي"،[80] و"المعاملة مع البهاليل والمجاذيب والبلّة"، و"التشرف بمعرفة أحاديث التصوّف"، و"التكشّف عن مهمات التصوّف"، و"تربية السّالك وتنجية الهالك"، وغيرها.

وهذه بعض أعماله التجديديّة النظريّة والعمليّة في مجال التصوّف والسلوك وقد ألّف خليفته الجليل عبد الباري الندوي كتابه المسمّى "بين التصوّف والحياة"[81] – الّذي اعتمدنا عليه في هذا البحث – بيّن فيه جهود شيخه الإصلاحيّة والتجديديّة في هذا الميدان، إلاّ أنّ هذه الصفحة من حياة التهانوي تستحقّ دراسة تخصصيّة شاملة من المعنيين بالصحوة الإسلاميّة، والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين خاصة في شبه القارة الهندية.

هوامش

(1) الشرواني، وكيل أحمد: "حياة حكيم الأمة "، مقال في مجلة "الحسن" (العدد الخاص عن الشيخ أشرف علي التهانوي: أكتوبر-ديسمبر 1987) : 50/1، رحمت الله الندوي: أشرف علي التهانوي، أشرف علي التهانوي:حكيم الأمة وشيخ مشائخ العصر في الهند، دار القلم، دمشق، ط١، 1427هـ/2006م: 95.

(2) التهانوي،نجم الحسن، "أشرف علي التهانوي: من طائفة الأولياء" مجلة "الحسن"(العدد الخاص): 1/6-8.

(3) المجذوب، خواجه عزيز الحسن: أشرف السوانح، إدارة تأليفات أشرفية، ملتان، باكستان، أكتوبر 1985م: 48/2.

(4) طريقة صوفية تنتهي إلى محمّد بن محمّد البخاري بهاء الدّين خواجه نقشبند، تلقن من الصوفي الشهير أمير كلال. مات في ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وسبع مائة (791هـ/1388م) انظر المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف : الطبقات الصغرى، تح محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ط١، 1999م: 238/4.

(5) الطريقة الچشتيّة منسوبة إلى إمام الطريقة الشيخ معين الدّين حسن السنجري المتوفى سنة 662هـ/1263م، انظر الحسني، عبد الحي: الثقافة الإسلاميّة في الهند/ معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط٢، 1983م:180.

(6) مدار هذه الطريقة عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1166م)، أحد الأقطاب الأربعة، ولد بجيلان وتوفي ببغداد، سمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي. انظر، الموسوعة العربيّة الميسّرة، بإشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، القاهرة، صورة طبعة:1965م: 681/1.

(7) السهروديّة: طريقة صوفيّة تنسب إلى أبي حفص عمر (ت 631 هـ/ 1234م) صوفيّ وفقيه شافعي ولد بسهرورد في فارس، ونشأ على عمّه أبو النجيب عبد القاهر السهروردي فأخذ عنه التصوّف. له مصنفات كثيرة منها"عوارف المعارف" وهو من أهمّ المؤلفات الصوفيّة لاشتماله على سير الصوفيّة وأصول سلوكهم وعلومهم وأعمالهم ووصف مقاماتهم وأحوالهم، انظر المصدر السابق: 1036/1.

(8) العارفي: عبد الحي: "التهانوي ومشربه في السلوك والتصوف" مجلة الحسن: (العدد الخاص عن التهانوي أكتوبر-ديسمبر 1987):464/1.

(9) التهانوي، أشرف علي: إمداد الفتاوي، إدارة تأليفات أولياء ديوبند، الهند، بدون تاريخ: 150/5 .

(10) الكوثري، محمد زاهد: مقالات الكوثري، (مقدّمة أحمد الخيري)، مطبعة الأنوار، القاهرة، ط:١، 1372هـ: 75.

(11) انظر لكلمات كبار العلماء من أقرانه ومعاصريه الذين يعترفون له بتلك المنزلة الخاصة التي رفعه الله إليها من تجديد الدّين، وإحياء السنّة وإصلاح المعاشرة في شبه القارة الهنديّة، انظر المجذوب: أشرف السوانح: 149/4-191، منشي عبد الرحمن: سيرة أشرف، سيرت أشرف، (إدارة نشر المعارف، ملتان، باكستان، ط1956،1): 416-426. مجلة الحسن (العدد الخاص:أكتوبر –ديسمبر1987): 72/1-73، الندوي: أضواء على الحركات الإسلامية و الدعوات الدينية والإصلاحية ومراكزها العلمية والتربوية في الهند، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، 1416هـ/1995م: 28-29، الشرواني، وكيل أحمد: أشرف المقالات، مجلس صيانة المسلمين، لاهور، باكستان، 1416هـ/1995: 35، 36.

(12) العارفي: محمد عبد الحي:"شمائل التهانوي" مجلة: الحسن (العدد الخاص:أكتوبر – ديسمبر1987): 81/1-82.

(13) الشرواني، أشرف المقالات: 46/2.

(14) أبو غدّة، عبد الفتاح: قيمة الزّمن عند العلماء، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط10، 1422هـ/2002م: 82.

(15) أبو غدّة، عبد الفتاح، تراجم ستّة من فقهاء العالم الإسلامي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، 1417هـ/1997م: 28.

(16) العثماني: قواعد في علوم الحديث، تح عبد الفتاح أبو غدة: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، (د.ت): 19.

(17) الشرواني: أشرف المقالات: 35/2، 36.

(18) انظر الشرواني، وكيل أحمد: أشرف المقالات: 35، 36.

(19) الندوي: الدّعوة الإسلاميّة في الهند وتطورها، مكتبة الندوة العلماء، لكنو، الهند، 1378هـ: 30.

(20) الحسني: نزهة الخواطر(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام)، دار عرفات بريلي، الهند ط:1413هـ/1992م.: 65/8، 67.

(21) The encyclopedia of Islam, New edition, edited by an Editorial committee, Leiden. E.J.Brill 1979: P: 701.

(22) مقتبسة من كتاب "الأضواء" للندوي: 6-7.

(23) المصدر نفسه: 28 29.

(24) المصدر نفسه: 172.

(25) العثماني: إعلاء السّنن إدارة القرآن والعلوم الإسلامية،كراتشي، باكستان (د.ت): 14/1 (المقدمة).

(26) الندوي، رحمت الله: أشرف علي التهانوي: حكيم الأمّة: 121

(27) العثماني: إعلاء السّنن: 17 (المقدّمة).

(28) المصدر نفسه:17.

(29) الندوي، رحمت الله، أشرف علي التهانوي، حكيم الأمّة: 281.

(30) المصدر نفسه: 196.

(31) المصدر نفسه: 196.

(32) الندوي، رحمت الله: أشرف علي التهانوي، حكيم الأمّة: 196.

(33) المصدر نفسه: 196-197.

(34) العثماني: إعلاء السّنن: 18 (المقدّمة).

(35) الندوي: رحمت الله: أشرف علي التهانوي، حكيم الأمّة: 193.

(36) التهانوي: إمداد الفتاوى: 150/5.

(37) رحمت الله الندوي: أشرف علي التهانوي، حكيم الأمّة: 456.

(38) المصدر نفسه: 456.

(39) المصدر نفسه: 457.

(40) لقد عدّ العلامة ابن خلدون "الطريقة " أو "التصوف" عبادة تتلقى أحكامها من صدور الرّجال كما عدّها من العلوم الإسلامية الأصيلة العريقة دون في الملة مثل سائر العلوم التي دوّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك. للتفصيل انظر ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، نشر الدار التونسية للنشر، تونس، ط3، 1993: 584-594.

(41) الندوي: بين التصوّف والحياة(المنهج الإسلامي لتربية النفس)، تعريب محمد الرابع الندوي، دار الفتح، دمشق، 1963م: 13.

(42) ابن حجر، أحمد بن علي: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، (د.ت): 13/295، المناوي، عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير للسيوطي، مطبعة الجمالية، مصر، ط1، 1329هـ: 1/10، 2/281، عظيم آبادي، محمد شمس الحق: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1389هـ/1969م:11/ 386.

(43) رحمت الله الندوي: أشرف علي التهانوي، حكيم الأمة : 191-192.

(44) الندوي: بين التصوّف والحياة: 12-13 (مقدّمة).

(45) رحمت الله الندوي: أشرف علي التهانوي، حكيم الأمّة: 5-6.

(46) المصدر نفسه:24.

(47) التهانوي، أشرف علي، أنفاس عيسى: 661.

(48) التهانوي، إمداد الفتاوى: 150/5.

(49) المجذوب :أشرف السوانح: 52/1.

(50) الندوي: بين التصوّف والحياة:26.

(51) الشمس: 91: 9-10 ،

(52) الندوي: بين التصوّف والحياة:26.

(53) المصدر نفسه:27 .

(54) العثماني: إعلاء السّنن: 7/1. (المقدمة).

(55) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار:15/1 (رقم:18).

(56) المائدة: 35.

(57) التهانوي، أنفاس عيسى: 437-438.

(58) التهانوي، المصدر نفسه: 438.

(59) التهانوي، أنفاس عيسى: 437-438.

(60) الندوي: بين التصوّف والحياة: 126.

(61) المصدر نفسه: 126.

(62) ابن أبي شيبة، المصنّف: 108/1 (رقم:1224) ولفظه (عن كعب): قال موسى: أي ربّ أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال يا موسى: أنا جليس من ذكرني. وذكر العجلوني طرقه بالتفصيل في كشف الخفاء منها من حسنها الحاكم و غيره انظر العجلوني:إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء و مزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على السنة الناس:1/231-233.

(63) انظر، الندوي، بين التصوّف والحياة: 194.

(64) المصدر نفسه: 194، 219.

(65) التهانوي، أشرف علي: التكشّف عن مهمات التصوّف: 64.

(66) التهانوي، أشرف علي: أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة: 236-237.

(67) يراجع: التهانوي، المصدر نفسه:237-238.

(68) التهانوي، أشرف علي: أشرف الطريقة في الشريعة والحقيقة: 77، ويراجع أيضا الندوي: بين التصوّف والحياة: 86-92.

(69) التهانوي: أشرف الطريقة:77.

(70) المصدر نفسه:85 .

(71) المصدر نفسه:79.

(72) رحمت الله الندوي: أشرف علي التهانوي حكيم الأمة :265.

(73) الندوي: بين التصوّف والحياة: 107-108.

(74) رحمت الله الندوي: م.ن: 267.

(75) رحمت الله الندوي: أشرف علي التهانوي، حكيم الأمّة: 268.

(76) المصدر نفسه: 268.

(77) انظر مثلا مسألة "شطحات الصوفية"، ومسألة "وحدة الوجود" التهانوي، أشرف علي: بوادر النوادر: 433، 439-442، وأنفاس عيسى: 659.

(78) ومثاله أنه سئل عن ما يقوله الصوفيّة إن الولاية أفضل من النبوة، فقال: "ليس معناه أنّ الوليّ أفضل من النبيّ، وإنما معناه أنّ منصب الرسالة مركب من مرتبتين إحداهما الولاية والثانية النبوّة، فولاية النبيّ تكون أفضل من مرتبته النبوّة وذلك لأنه توجّه إلى إفادة الخلق من جهة نبوّته وحيثيّة نبوّته وتوجّه إلى الحقّ من حيث الولاية فالمطلوب الأصلي للنبيّ أيضا هو التوجّه إلى الله تعالى، وأمّا التوجّه إلى الإفادة فذلك مطلوب بالغير"، التهانوي: أنفاس عيسى: 411.

(79) محمد بن محمد البلخي القونوي ،الشاعر الفارسي المعروف بـ "جلال الدين الرومي (ت672هـ/1207م)، وكتابه المثنوي المعنوي" يعتبر عمدة في التصوف والسلوك والشعر والأدب الفارسي، يقع في ستة مجلدات وعدد أبياته 26ألف بيت، ويشتمل على قصص وحكم وأمثال ومواعظ وتفسير القرآن الكريم، الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط10، 1992: 30/7.

(80) محمد بن علي بن محمد بن عربي أبوبكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بـ "محي الدين ابن عربي"، حكيم، صوفي، متكلم، ولد في الأندلس عام 560هـ/1165م وتوفي بدمشق عام 638هـ/1240م. له كتب كثيرة معروفة منها "الفتوحات المكية" في علم النفس والتصوف، انظر المصدر نفسه:6/281.

(81) وقد طبع هذا الكتاب باسم: المنهج الإسلامي لتربية النفس.

"الترياق" للشيخ عبدالعزيز الفرهاروي كتاب رائع في الطب النبوي – دراسة علمية

الحافظ عبدالرحيم*

حميده مظهر**

الحمد لله الذي خلق الإنسان و علّمه البيان ، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وحسن البيان فهو خير خلقه و سيّد رُسله محمد بن عبدالله و على آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

علم الطب: كما ورد في الحديث المرفوع ، " ياعباد الله! داووا فإنّ الله لم يضع داءً إلاّ وضع له شفاء غير داء واحد الهرم" رواه أحمد.[1] وقال الإمام محمد الغزالي: "علم الطب فرض كفاية".[2] وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي: "يستحبّ للرجل أن يعرف من الطب مقدار ما يمتنع عما يضر ببدنه".[3]

وقد كتب علماء الحديث في الطب كتباً كثيرة في البلاد العربية وغيرها منهم الشيخ العلامة عبدالعزيز الفرهاروي (1239هـ) من علماء شبه القارة وله مؤلّفات كثيرة فى هذا العلم مثل "الأكسير" و "الترياق" و "الزمرد" و "العنبر" ، أمّا "الترياق" فهو موشح بالطب النبوي و قمتُ بتحقيق و دراسة كتاب "الترياق" لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية من جامعة بهاء الدين زكريا ملتان.

نظراً لأهمية هذا الموضوع ينبغي لنا أن ندرس الأعمال الأدبية الجلية الخالدة التي أنتجها علماء شبه القارة الهندية الباكستانية عبر العصور المختلفة ، لنتعرف على معالم الأدب العربي والنشاط العلمي في المنطقة. والحق أنّ هذا الموضوع الهام يلقي الضوء على خدمات أدباء شبه القارة التي بذلوها في تأليف الكتب والرسائل في موضوعات شتى كالأدب واللغة والتفسير والحديث والفقه والفلسفة والمنطق وخاصةً الطب النبوي.

ومن هؤلاء العلماء الأجلاّء الشيخ العلامة عبدالعزيز الفرهاروي الذي كان يعدّ من أبرز علماء شبه القارة بمنطقة البنجاب الجنوبية (ملتان) وله مؤلفات كثيرة في التفسير والحديث والفقه والمنطق والبلاغة، و منها حقّقت ومنها لم تحقّق بعد.

نبذة عن حياة المؤلف:

هو سلطان العلماء مقدام الفقهاء قطب الموحدين شيخ المسلمين العلامة عبدالعزيز الفرهاروي الجشتي النظامي قدس سره السامي.[4]

ولد الشيخ الفرهاروى في سنة 1206هـ/1792م.[5] في قرية صغيرة تسمى (پريهار) وفريهار قرية صغيرة تقع في مديرية (مظفر كره) على مقربة من مدينة (كوت ادو) والشيخ نفسه يصف موقعها الجغرافي قائلاً: "إن قرية فريهار من مضافات كوت ادو شرقاً من نهر السند و هى ذات هواء نظيف وماء عذب".[6]

---

* أستاذ اللغة العربية بجامعة بهاء الدين زكريا ملتان،باكستان.

**الأستاذة المشاركة في اللغة العربية الكلية الحكومية للبنات،ملتان، باكستان.